العُرس والمأتم

ها نحن على قاب قوسين أو أدنى من التحرير. وصار من المحتمل، بل من شبه المؤكّد، أن ينسحب جيشُ الاحتلال الإسرائيليّ وعملاؤه من الجنوب والبقاع الغربيّ المحتلّيْن قبل تموز (يوليو) القادم.

ولكنّ الفرح لا يعمّ لبنان. وفي البلد أجواءُ خشية وحذر.

ولسنا هنا لنطمئِنَ النّاسَ. فالحرب الأهليّة لم تنتهِ تماماً. ولهذا فإنّ ألغام الإسرائيليّة لن تُنزع حتى لو انسحب الإسرائيليُّون.

من المخجل والمهين حقاً أن نَسْمع بعض النّاس «يستمهلون» جيش الاحتلال (وإنْ بشكلٍ موارب) كي لا يخرج إلاّ باتّفاق.

ولكنْ أيُّ نصرٍ نحقّقه إذا عقدنا اتفاقاً مع «إسرائيل»؟

لا نصرَ البتة. بل هو مسعى أكيد لإفشال منطق المقاومة برمّته.

وذلك أنّ النصر الذي نوشك أن نَقْبض على جمراته هو، ببساطة متناهية، نجاحُ المقاومة في فرض الانسحاب على العدوّ دون قيدٍ أو شرط ، في الوقت الذي عجزتْ فيه أطرافٌ عربيّة أخرى عن تامينِ ولو «إعادةِ انتشارٍ» مذلّة برغم الاتفاقات والترتيبات واللقاءات المتعدِّدة مع ممثلّي الكيان الصهيونيّ.

نَصْرُنا، ببساطة، هو تحقيقُ ما عَجز بقيةُ العرب عن تحقيقه، وذلك بتقديمنا أمثولةَ المقاومة المسلّحة والمدنيّة والشعبيّة الشاملة حتى إنجاز التحرير.

فلماذا نوقّع اتفاقاً، نكافئ به المنسحِبَ المضرّجَ بدمائه... ودمائنا؟

لقد قدّمنا حصّتنا من معادلة الصراع. قدّمنا ٢٢ عاماً (بل اثنين وخمسين عاماً) من الموت والتهجير والدمار. وعلينا ألاّ نقدّم المزيد لعدوّنا. فلا نتحوّل إلى حارسٍ لأمنه، أو هراوةٍ «لتاديب» المخيمات الفلسطينيّة الحالمة ـ أبداً ـ بحقّها في العودة إلى الأرض التي هُجِّرتْ مِنها.

ولكنْ، علينا، في المقابل، أن نبذل المزيدَ من الجهد ـ الوطنيّ والثقافيّ ـ كي نَنْزَعَ الصواعقَ الداخليّةَ التي ستفجّر ألغام الإسرائيليّة المزروعة في طول لبنان وعرضه. وأول هذه الصواعق: الطّائفيّة، التي هي نقيض «الوطنيّة اللبنانيّة»، والعاملُ الأول في إضعاف كياننا اللبنانيّ (الهشّ أصلاً).

وثاني الصواعق: معاناة الشعب الفلسطينيّ في لبنان. وهي معاناةٌ تؤدي يوميّاً إلى زيادة حالات القهر والتطرُّف والمذهبيّة. ولا حلّ لها إلاّ بالسعي إلى تمسُّك اللبنانيِّين والفلسطينيِّين معاً بحق عودة اللاجئين، وبمنحهم كاملَ الحقوق المدنية والإنسانيّة في لبنان إلى أن تتحقّق هذه العودة.

والصاعق الثالث، والأهمّ، هو العلاقة اللبنانيّة ـ السوريّة الحاليّة. فقد آن الأوان أن تتغيّر هذه العلاقةُ تغيُّراً جذريّاً، فتُبنى على أساس احترام سوريا لسيادة القرار الوطنيّ اللبنانيّ، وتُنبذ ـ إلى الأبد ـ سياسةُ الاتّكال والتوكيل الجارية منذ عقود. وبهذا المعنى تكون «وحدةُ المسارَيْن» اللبنانيّ والسوريّ وحدةً حقيقيّة، لا توحيداً قائماً على أساسٍ من الاستتباع أو الاستلحاق.

ومن دون نزع هذه الصواعق، قد يغدو عرسُ التحرير ـ على المدى البعيد، وربّما القريب ـ مأتماً للوطن... وللإنسان.

الآداب